السنة المحمدية

عوامل دعومتها وأسس صيانتها

الدكتور : عبد المهدى عبد القادر

إذا توافر فى الشىء عوامل البقاء الذاتية وأسس صيانية من العوامل الخارجية فله أعلى درجات البقاء اللائق به ، وهذا شأن السنة المحمدية فلقد حظيت بخصائص فى ذاتها تورثها البقـــاء ووضع أهلها لها من الأسس ما يجعلها حصينة ضد الضياع أو النقصان وضد التغيير والتبديل ، حتى ليستطيع الباحث أن يقسم عوامل بقاء السنة وسلامتها الى قسمين :

(أ) عوامل فى نفس السنة .

(ب) عوامل فى حملة السنة .

(أ) أما العوامل التى فى نفس السنة فتتمثل فى :

١ — هدى النبى ﷺ فى تبليغ السنة .

٢ — ما أنعم به الله على نبيـــه ﷺ إذ آتاه جوامع الكلم وأعلى درجات الفصاحة والبلاغة .

٣ — سمو تعاليم السنة . وهاك التفصيل والله المستعان .

أولا : هدى النبى ﷺ فى تبليغ السنة :

١ — فلقد كان ﷺ لايحدث أصحابه إلا إذا كانوا فى حالة يكون سماعهم لحديثه سماعا تاماً .

أخرج البخارى فى صحيحه (١/٢١٧)(١) عن جرير بن عبد الله أن

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى طبعة السلفيه .

النبي ﷺ قال له فى حجة الوداع : استنصت الناس . . . إلخ الحديث وفى هذا دليل على أنه ﷺ لا يحدثهم إلا إذا كانوا فى حالة إنصات وإصغاء وما كان الصحابة بأهل ضوضاء أو فوضى وإنما حدث ذلك من كثرة الزحام ولم يعلموا أنه ﷺ سيحدثهم فلما أراد ﷺ حديثهم أمر جريراً أن يطلب منهم الإنصات .

ودليلنا على أن الصحابة كانوا أهل سكينة وهدوء لا ضجيج وفوضى ما روى عن أسامة بن شريك قال : أتيت رسول الله ﷺ فإذا أصحابه عنده كان رؤسهم الطير (الإلماع ص ٤٨ ، ٤٩) .

٢ — وكان لا يحدثهم إلا فى حالة شوق للسماع إذ ذاك آكد لرسوخ المسموع وضمان من الملل والسآمة . أخرج البخارى (١٦٢/١) عن ابن مسعود قال : كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا .

٣ — وكان يعيد الكلمة ثلاثا حتى تفهم وتعقل عنه فكم من أمور يحتاج الذهن أن تكرر له حتى يستوعبها فكان ﷺ كذلك حرصا على فهم أصحابه كل ما يحدثهم به .

أخرج البخارى (١٨٨/١) عن أنس عن النبى ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه ... إلخ الحديث .

٤ — وكان إذا تحدث يتحدث بتر ولا يدخل الكلام بعضه فى بعض ولا يسرده سرداً . وهذا أدعى لسلامة المسموع وحفظ من أراد وفهم المستفيد .

أخرج أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت: « كان كلام رسول الله ﷺ كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه . ومعنى « فصلا » واضحا ظاهراً .

٥ — وكان يضرب لهم الأمثال لزيادة الإفهام ويصور المعانى لترسخ فى الأذهان كما ورد فى سؤاله لهم عن شجرة تشبه المسلم ففكروا ثم أجابهم وبدهى أن الإجابة بعد تفكير وانتظار ترسخ وتثبت فى الأذهان .

أخرج البخارى (١٤٥/١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها وأنها مثل المسلم فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبد الله ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله قال : هى النخلة .

ثانياً : ما أنعم الله به على نبيه ﷺ :

فلقد اصطفى الله نبيه أجل الخلق بيانا وفصاحة ، وبلاغة وأدبا ، شهد بذلك أصحابه عامة ومنصفى أعدائه .

وسنته ﷺ بين أيدينا شاهدة بذلك فهى فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة وفوق هـذا آتاه الله جوامع الكلم فقد تحتاج الكلمة فى شرحها إلى صفحات فأى تعبير أشمل من قوله ﷺ « الدين النصيحة »(١) حتى قال الخطابى : ليس فى الكلام كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة .

أخرج مسلم فى صحيحه (١٥٦/٢)(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون » .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه .

ولسوف تدرك قيمة هذا العامل ومدى جذبه للعرب إذا تذكرت ما تعرفه عن بلاغة القوم وفصاحتهم وتباريهم وتباهيهم بذلك وحبهم للبيان والفصاحة .

كما تدرك قيمته إذا علمت أنه صلى الله عليه وسلم يعبر عن المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة وتعبيرات وجيزة وهـذا أيسر للحفظ وأسهل للاستيعاب وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديك تجد السمة الغالبة عليها عدم تجاوز عدد أصابع اليد من الأسطر بل كثير منها لا يتجاوز السطرين .

يقول ابن قيم الجوزية (زاد المعاد ١/٦٣) .

« كان صلى الله عليه وسلم أفصح خلق الله وأعذبهم كلاما وأسرعهم أداء وأحلاهم منطقا حتى أن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الأرواح ويشهد له بذلك أعداؤه ، وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد ليس بهذر مسرع لا يحفظ ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام » .

ثالثا : سمو تعاليم السنة :

فلقد وجدت الأمة فى السنة النبوية نظاماً يفوق كل نظام وأسلوب حياة يسمو على كل الأنظمة وماذا بعد « لا ضرر ولا ضرار »(١) وماذا بعد « ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه »(٢) ولقد أخذت السنة على الصحابة شغاف قلوبهم إذ نقلتهم من حال إلى حال من مبدأ أكل القوى الضعيف إلى « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »(٣) من عالم التفاخر بالآباء والأجداد إلى عالم « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب »(٤) نقلتهم إلى حياة يسودها السمو الخلقى الذى يسمو على كل رأى وتفكير مهما كان ويوافق الفطر بل وتسعد به فى كل زمان

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه . (٢) أخرجه أحمد والحاكم .
(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى (٤) أخرجه البزار .

ومكان مما جعلهم فى أعلى درجات الحب للسنة . ينفذون كل تعاليمها ويحرصون على معرفة كل نصوصها مما كان سببا فى الحفاظ على السنة فان تحويلها إلى واقع عملى جعلها فى أعلى درجات الحفظ ، وحبهم لها جعلها فى أعلى درجات تطلاب أهلها لها وسيأتى مزيد بيان لذلك — إن شاء الله تعالى — فى الحديث عن الصحابة وحبهم لدينهم .

وما كان من بعد الصحابة بأقل منهم . فلقد ضربوا المثل الأعلى فى الحرص على السنة حتى دونت فى بطون الكتب وصينت من كل زيف ، وما زالت تعاليمها)سامية تدعونا بل تجذبنا إليها .

ولو أن أهل العصر علموا ما فى السنة من كنوز وما فيها من سمو ورفعة لحرصوا عليها ولصانوها بالنفس والنفيس ، بيد أن إنصرافهم عنها لم يؤثر فى الحفاظ عليها فلقد دونت فى القرون الفاضلة — التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... الحديث(١) .

ولقد بلغ من سموا السنة أن جذبت أنظار أعداء الإسلام فراحوا يراقبونها وما جاءت به . فهاهو مشرك ينطق بشمول السنة لكل أمور الحياة معترفا على نفسه ومن على شاكلته بأنهم يحرصون على معرفة تعاليم السنة .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (١/٥٤٦) عن سلمان قال : قيل له قد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة ؟ قال : قال : أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجى باليمين أو أن نستنجى بأقل من ثلاثة أحجار أو نستنجى برجيع أو بعظم . أنظر إلى قول السائل « لقد علمكم نبيكم كل شىء تجد أنها تدل على تتبع هؤلاء لامور السنة واعترافهم - مع أهلها - بشمولها لكل أمور الحياة .

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

(ب) أما العوامل التى فى حملة السنة فتتمثل فى :

١ — ما كان عليه الصحابة من عدالة وسعة حفظ وحب لدينهم .

٢ — شرعية الإسناد والاهتمام به اهتماما منقطع النظير. وهاك تفصيل ذاك الإجمال .

أولا : الصحابة :

الصحابى : هو من لقى النبى ﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام .

فكل من لقى النبى ﷺ ولو لحظة حال كونه مؤمنا ومات على الإسلام فهو صحابى سواء لقيه وهو صغير أو كبير وسواء روى عنه أو لم يرو عنه . قال البخارى : ومن صحب النبى ﷺ ورآه من المسلمين فهو من أصحابه « كفاية ص ٩٩ » .

هذا هو المشهور بين أهل الحديث فإنهم لشرف منزلة النبى ﷺ أعطوا كل من رآه حكم الصحبة إذ رؤيته ﷺ شرف مابعده شرف وفى تعريف الصحابى أقوال غير ذلك (راجع فتح المغيث شرح الفية الحديث للعراقى ٤/٢٩) .

وعدد الصحابة فوق المائة ألف فلقد قال أبو زرعة الرازى : توفى النبى ﷺ ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان من رجل وامرأة كلهم قد روى عنه سماعا أو رؤية قال ابن فتحون — بعد أن ذكر ذلك — أجاب أبو زرعة بهذا سؤال من سأله عن الرواة خاصة فكيف غيرهم ؟ (الاصابة تحقيق البجاوى ١/٣) .

روى عن — أبى زرعة الرازى — أنه قال : قبض رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه (فتح المغيث للعراقى ٤/٢٩) .

وهذه الكثرة الكثيرة بما جبلوا عليه من قوة حفظ وتوقد قريحة وماحباهم الله به من حب لدينهم وثقة فى نقل أخبارهم كانوا أيما عامل من عوامل حفظ السنة .

فعدالتهم جميعا أدت إلى كثرة حملة السنة وإلى اطمئنان التابعين وخفة مؤنة تحمل السنة إذ المدرسة التى تخرجوا فيها — بفضل عدالة الصحابة — واسعة موثوق بها ولولا عدالة كل الصحابة لكان على التابعين أن يفحصوا ويدققوا ولقل عدد من يروون عنه . وكل ذلك بفضل الله لم يكن .

وسعة حفظهم أدت إلى كثرة حفاظ السنة والمحافظين على نصوصها ولذلك دوره فى تيسير الأمر على التابعين وفى حفظ السنة .

وحبهم لدينهم كان هو سر إيتاء العاملين السابقين ثمارهما إذ لو كانوا عدولا حفاظا لكنهم غير مهتمين بالسنة ما حفظوا ولا حافظوا لكنهم لما كانوا محبين حريصين عليها أدى ذلك إلى الحفظ والحفاظ خاصة أنهم عدول أثبات وهاك تفصيل القول :

١ — عدالة الصحابة :

اختار الله سبحانه لنبيه ﷺ صحابه أجلاء فى أعلى درجات الطهارة والنقاء — كما أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم — وذلك كى يحملوا هذا الدين من أشرف مخلوق إلى خلفهم فيكونوا عليه أمناء حريصين بعد أن يكونوا له متبعين .

ولقد بين سبحانه أوصافهم هذه فى غير ما موضع من الكتاب وتعديله سبحانه فوق كل تعديل فهو للظاهر والباطن للعلن والسر .

يقول سبحانه « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء

بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا . . . الآية »(١) ويقول « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . . . الآية »(٢) .

ويقول « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٣) ويقول « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »(٥) وقال : « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »(٦) وقال : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم . . . . الحديث »(٧) .

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩
(٢) سورة التوبة آية ١٠٠
(٣) سورة الحشر آية ٨ و ٩
(٤) سورة الأنفال آية ٧٤
(٥) أخرجه البخارى .
(٦) أخرجه الترمذى وابن حبان .
(٧) أخرجه البخارى ومسلم .

يقول الخطيب (فى الكفاية ص ٩٦) « على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شىء مما ذكرناه لا وجبت الحال التى كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة فى الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين .

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة فهم مجمعون على أن الصحابه كلهم عدول كيف لا ؟ وقد عدلهم الله ورسوله واحوالهم تحكم بعدالتهم .

قال أبو زرعه الرازى (الكفاية ص ٩٧ والإصابة ج ١ ص ١١) إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق والقرآن حق وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله عليه السلام وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة .

٢ — قوة ذاكرتهم :

خصصت العرب بالحفظ فكانوا يعتمدون على صدورهم فى حفظ أنسابهم ومفاخرهم وأشعارهم وكل مالهم فهاهو ابن عباس(١) يحفظ فى سمعة واحدة قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

---

(١) جامع بيان العلم ٨٣/١

وها هو قتادة يقول(١) ماسمعت أذناى شيئا قط إلا وعاه قلبى .

وها هو ابن شهاب الزهرى يقول(٢) إنى لأمر بالبقيع فأسد أذنى مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا فوالله ما دخل أذنى شيء قط فنسيته » .

ولقد انتفع الصحابة بهذه الملكة — ملكة الحفظ فى خدمة الكتاب والسنة فكانت عاملا من عوامل الحفاظ على السنة إذ سجلوها فى صدورهم وتناقلوها فيما بينهم .

واختص حفظ الصحابة بالاقتران والفهم الثاقب والاستنباط من النص بل من النصوص ولو كانت غير متعاقبة فها هو ذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يستنبط من قوله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» وقوله «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» — رغم عدم تعاقب النصين — يستنبط أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر .

عن أبى الأسود الديلى (الدؤلى) أن عمر بن الخطاب رفعت إليه امرأة ولدت لستة أشهر فهم برجمها فبلغ ذلك عليا فقال ليس عليها رجم قال الله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» وستة أشهر فذلك ثلاثون شهرا . قلت عنى الآية «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» وهى مذكورة فى رواية البيهقى . وأثبت الواقع صدق استنباط على هذا فولدت المرأة المرة الثانية لستة أشهر أيضا . وورد هذا الاستنباط عن ابن عباس أيضا .

عن ابن عباس قال : أتى عثمان بامرأة ولدت فى ستة أشهر فأمر برجمها فقال ابن عباس أنها إن تخاصمك بكتاب الله تخصمك يقول الله

---

(١) الإلماع ص ٢٢٠ وعلل الحديث للترمذى فى آخر جامعة ١٠/٤٩٣ تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٨٣

والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » ويقول الله فى آية أخرى « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» فقد حملته ستة أشهر فهى ترضعه لكم حولين كاملين فدعابها عثمان فخلى سبيلها . (راجع الدر المنثور ١/٢٨٧ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٤٤٢ وتفسير الطبرى ٢/٤٩١) وكتب الفقه الإسلامى تشرق نورا باستنباط واجتهادات الصحابة فى فهم النص كما تضيء بذلك الكتب التى اهتمت بالآثار كمصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبى شيبة وسنن البيهقى » .

٣ — حبهم لدينهم وحرصهم عليه :

بلغ حب الصحابة لدينهم وحرصهم عليه درجة استهانوا معها بالنفس والنفيس إزاء نصرة هذا الدين والحفاظ عليه . فذادوا عن حياضه بالمال والولد وبالنفس حتى كان الابن والأب يتنازعان فيمن يخرج إلى الحرب ومن يبقى فى الأهل فكان الوالد يحرص على أن يكون هو الذاهب إلى ساحه الوغى وما كان الابن بأقل منه شأنا وما قصة جابر مع أبيه عن ذهنك ببعيد إذ يتسابق كل فى الذهاب إلى المعركة ويستغل الأب أبوته وكبر سنه مبررا لذهابه هو خشية أن يموت على فراشه غير شهيد . فإذا علمت ذلك - فداءهم لدينهم بأنفسهم - أدركت درجة حرصهم على حفظ نصوص هذا الدين والتى بلغت درجة التفرغ الكامل لحفظ ما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه نماذج من حرصهم على تعلم أمور دينهم .

أخرج البخارى (١/١٨٥) عن عمر قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد - وهى من عوالى المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره . وإذا نزل فعل مثل ذلك . الحديث .

وأخرج البخارى أيضاً (١/١٩٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هـــذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث . . الحديث » فها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنه سوف يسأله أصحابه عن هذا الأمر - الشفاعة - نظراً لحرصهم على التعلم ويرجح عنده أن يسبقهم أبو هريرة بهذا السؤال وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم « أحد أول منك » أى أن كثيراً عنده هذا السؤال بيد أنك ستتقدمهم وهذا مدح للصحابة عامة ولأبى هريرة خاصة . ولا تظن أن هذا مدح لأبى هريرة وفقط لا فإنه لم يقل « أن لا يسألنى أحد غيرك » وإنما قال « أول منك » فى ذلك إثبات لزيادة حرصه مع إثبات الحرص لكل الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وعقد الدارمى فى سننه ١/١١١ « باب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليم السنن » أورد فيه مما يثبت المعنى الذى نحن فيه كثيراً فأخرج عن أبى ذر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يغلبونا على ثلاث : أن نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونعلم الناس السنن .

وعقد أبى ذر أيضاً « لو وضعتم الصمصامة - بجملتين والأولى مفتوحة هو السيف الصارم الذى لا يثنى وقيل الذى له حد واحد - على هـــذه وأشار إلى قفاه ثم ظننت إنى أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله وسلم قبل أن تجيزوا على لا نفذتها » راجع فتح البارى ١/١٦١ فى موقف أبى ذر هذا ففيه كبير بيان .

وبالجملة ففى سنن الدارمى فى هذا الموضع خير كثير فراجعه .

هذا ولم تكن هذه الحال مقصورة على الرجال فحسب وإنما شاركهم بل سابقهم فيها النساء حتى وصل الأمر أن شكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم قلة الفرصة لهن فى التعليم راجيات إتاحتها .

أخرج البخارى (١/١٩٥) عن أبى سعيد الخدرى : قالت النساء للنبى صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن . . الحديث .

ولذا قالت عائشة فيما أخرجه مسلم (١/٦٢٩) « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين »

كما أنه لم تكن الحال هذه قصراً على الموجودين مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة بل أن أهالى الأماكن البعيدة عن المدينة شاركوا المدنيين فى شرف الحرص على معرفة وتبليغ السنة . فكانوا يرسلون رسلهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم عنه ما نزل من شرع السماء . وإمتثالا لروح الإسلام كان الوفد يبلغ ما علمه إلى كل من يمر عليهم .

أخرج ابن الجعد (حديث رقم ٦٥٢) عن عمرو بن سلمة قال : كان زمن الفتح يمرون بنا فنقرأ ويقرءون فنأخذ منهم العلم فذهب أبى بإسلام قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يؤمكم أقرؤكم لكتاب الله فقدمونى بين أيديهم . . الحديث .

وأخرج أبو داود (٢/٢٩٣) عن عمرو بن سلمه قال : كنا بحاضر يمر بنا الناس إذا أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا إذا رجعوا مروا بنا فأخبرونا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا وكذا وكنت غلاما حافظا فحفظت من ذلك قرآنا كثيراً فانطلق أبى وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الحديث ومن هنا تعلم أن الوفود بلغت وأن من سمع حفظ وهكذا كان القوم

ويظهر للتأمل أن هذه الوفود كانت فى منتهى النضج الفكرى فكانت تسأل الأسئلة بتركيز ويجب صلى الله عليه وسلم بما يشفى غليلهم ويوضح لهم روح دينهم .

أنظر إلى وفد عبد القيس إذ يقول (كما فى صحيح مسلم ١ / ١٥٨) « يا رسول الله أنا نأتيك من شقة بعيدة وأن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر وانا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة .. الحديث .

نجد أنهم لم يحضروا ليسمعوا مما صادفوه وإنما « مرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة » فطلبوا التعاليم عامة شاملة تورث الجنة .

وأخبار الوفود كثيرة ذكر ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبرى » تحت عنوان (ذكر وفادات العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) كثيراً منها وعدد من الوفود نحو سبعين وفدا (راجع الجزء الأول من ص ٢٩١ إلى ص ٣٥٩) .

وكان الرجل يجىء بنفسه ليسأل عن أمور دينه ولربما قطع فى سبيل ذلك طويل المسافات وتحمل شديد مشاق السفر كما فى حديث طلحة ابن عبيد الله الذى أخرجه مسلم (١/ ١٤١) قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه مايقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات فى اليوم والليلة . . الحديث .

وكما فى حديث عقبة بن الحارث أنه تزوج ابنة لأبى أهاب من عزيز فأتته امرأة فقالت إنى قد ارضعت عقبة والتى تزوج فقال لها عقبة : ماعلمت أنك ارضعتنى ولا أخبرتنى فركب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فسأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف وقد قيل ففارقها عقبة ونكحت زوجا غيره ، وعقبة هذا كان من أهل مكة فارتحل إلى المدينة من أجل أن يسأل (بخارى ١/ ١٨٤) .

وبعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى زاد حرص الصحابة على السنة وتفانوا فى خدمتها وتسابقوا فى طلبها وجمعها وفهمها وتطبيقها مفضلين السماع ممن سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة حريصين على اللفظ النبوى وعلى تناقله كما قاله صلى الله عليه وسلم جهد الطاقة .

أخرج الخطيب (فى الكفايه ص ٢٧١) بسنده عن سعد بن عبيدة السلمى عن ابن عمر قال : بنى الإسلام على خمس على ان تعبد الله وتكفر بما دونه وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصيام رمضان فقال رجل تعبد الله وتكفر بما دونه وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان قال : لا أجعل سيام رمضان آخرهن كما سمعت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن عبد البر (جامع بيان العلم ١/ ١١٢) بسنده عن ابن عباس قال: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو أشأ أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثنى .

وأخرج أيضاً — نفس الكتاب والصفحة - عن أبى سعيد الأعمى ان أبا أيوب رحل إلى عقبة بن عامر فلما قدم مصر أخبروا عقبة فخرج إليه قال حدثنا ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ستر المسلم لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من ستر مسلما على خزيه ستره الله يوم القيامه » فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حل رحله . وهو فى مسند أحمد ٤/ ١٥٣ ، ١٥٩

وأخرج أيضاً (ص ١١١) عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت إليه شهرا حتى قدمت الشام فإذا عبد الله بن أنيس

الأنصارى فأتيت منزله وأرسلت إليه أن جابرا على الباب فرجع إلى الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت نعم فخرج إلى فاعتنقته واعتنقنى قال : قلت حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم ، لم أسمعه أنا منه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله تبارك وتعالى العباد أو قال الناس — شك همام وأومأ بيده إلى الشام — حفاة عراة غرلا بهما قال : قلنا ما بهما ؟ قال : ليس معهم شىء فينادیهم بصوت يسمعه من بعد ويسمعه من قرب : أنا الملك الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار واحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة قال قلنا له كيف وإنما نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلا قال بالحسنات والسيئات .

وذكر ابن عبد البر فى باب ذكر الرحلة فى طلب العلم من كتابه « جامع بيان العلم ص ١١١ كثيرا من الأخبار الدالة على تحمل الصحابة والتابعين بل استماتتهم فى سبيل خدمة السنة بكل شدة ومشقة حتى سافر أحدهم من أجل حرف ولم يكتف أحدهم بسماع الحديث من غير النبى صلى الله عليه وسلم بل سافر إليه ليسمع منه مباشرة مهما كانت مشاق السفر وبعده صلى الله عليه وسلم سافر بعضهم من أجل حديث! المفاوز بل سافر من أجل أن يسمع حديثا سمعه هو من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتثبت .

وهكذا كان حب الصحابة لدينهم وحرصهم عليه بلغ فوق المعقول فنالوا به المأمول جزاهم الله خير الجزاء .

ثانياً : شرعية الإسناد :

حث الرسول صلى الله عليه وسلم الأمة على أن يأخذ كل منها العلم عمن فوقه ويبلغه إلى من دونه إذ فى ذلك بقاء العلم وإظهاره ومعرفة أحكام الدين وإظهاره .

يقول صلى الله عليه وسلم « تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم(١) :

ويقول : بلغوا عنى ولو آيه ... الحديث(٢) .

ويقول « نضر الله أمرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه عنا كما سمعه فرب حامل فقه غير فقيه « وفى رواية » ورب حامل فقه إلى من هو افقه منه » وفى رواية « فرب مبلغ أوعى له من سامع » (٣) .

وقال فى حجة الوداع « ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه (٤) » .

وقال لوفد عبد القيس ـ كما تقدم ـ احفظوه واخبروا به من وراءكم .

وهو صلى الله عليه وسلم إذا كان قد حث الأمة على السماع والإسماع اللذين هما حصن أمان للسنه من أن يصنع منها حرف فإنه أيضاً وضع لها الحصن الذى يحفظها من أن يزاد فيها حرف فحذر من الكذب عليه ومن

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وابن حبان .

(٢) أخرجه البخارى والترمذى وأحمد .

(٣) أخرجه ابن حبان والترمذى وأبو داود وأحمد وراجع فى هذه الأحاديث الثلاثة كتاب الإلماع ص ١٠ ، ١٣

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وراجع الإلماع ص ١٤ ، ١٥

رواية المكذوب ومن الرواية عن الكاذب مبينا أن هذا النوع من الكذب ليس كأى كذب وإنما هو كذب فى دين الله اثمه أعظم والعقوبة عليه أشد .

أخرج الإمام مسلم (١/٥١ — ٥٩) عن سمرة بن جندب وعن المغيره ابن شعبة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » روى بفتح الباء الموحدة وبكسرها . وعن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار » وعن أنس أنه قال: أنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار — وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وعن المغيرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أن كذبا على ليس ككذب على أحد من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وبين القرآن أن الخبر المقبول إنما هو خبر العدل أما خبر الفاسق فلا ، قال سبحانه «ياأيها الذين آمنوا أن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... الآية (١) وقال: وأشهدوا ذوى عدل منكم »(٢) فدلت الآية الأولى على وجوب التبيين والكشف عن خبر الفاسق ودلت الثانية على الاعتماد على خبر العدل وهى وأن كانت فى الشهادة فالخبر وإن فارق معناه معنى الشهادة فى بعض الوجوه فإنهما يجتمعان فى اعظم معانيها (راجع مقدمة صحيح الإمام مسلم) .

ومن هذين ـ الحث على السماع والإسماع والرواية عن العدول فقط ـ كان علم الإسناد واهتمت به الأمة اهتماما منقطع النظير لإدراكها أنه أساس حفظ هذا الدين .

---

(١) سورة الحجرات آية ٦ .
(٢) سورة الطلاق آية ٢ .

وقال عبد الله بن المبارك « الأسناد من الدين ولولا الأسناد لقال من شاء ماشاء » وقال : بيننا وبين القوم القوائم يعنى الاسناد (مقدمة مسلم) .

وقال محمد بن سيرين : « أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم (مقدمة مسلم والكفاية ص ١٩٦) .

وقال الضحاك بن مزاحم « أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه» (كفاية ص ١٩٦) .

وقال طاووس : أن كان صاحبك مليا — أى يعتمد عليه بأن يكون عدلا ضابطا — خذ عنه مقدمة مسلم .

وقال مالك : اتق الله وأنظر ممن تأخذ هذا الشأن (كفاية ص ١٩٩) .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى : والله أكرم هذه الأمة بالاسناد لم يعطه أحداً غيرها فاحذروا أن تسلكوا مسلك اليهود والنصارى فتحدثوا بغير اسناد فتكونوا سالبين نعمة الله عن أنفسكم مطرقين للتهمة إليكم وخافضين لمنزلتكم ومشتركين مع قوم لعنهم الله وغضب عليهم وراكبين لسنتهم » .

وإذا كان الإسلام قد بين عظم منزلة الإسناد وأن الخبر لا يقبل إلا عن عدل فإنه أجاز الكلام فى حال رجال الرواية بل اعتبر ذلك من النصيحة الواجبة وذلك لتسلم الشريعة من الدس والدخيل ولا يوجد سبيل لمن فى قلبه مرض فتكلم الرسول صلى الله عليه وسلم بما تتحق به النصيحة فقال « أن عبد الله رجل صالح (١) » وقال بئس أخو العشيرة (٢) الخ وكذلك تكلم للصحابة من بعده ولكن كان القول قليلا فإن الصحابة جميعا معدلون بتعديل

---

(١) ، (٢) أخرجه البخارى .

الله لهم — كما تقدم — ولم يكن الجرح فى عهدهم إلا بالنسيان والغفلة أو الخطأ وهذا فيهم قليل لشدة حرصهم وتحريهم أما من وجد فى عصرهم وهو غير صحابى بأن أسلم بعد موت الرسول سواء من العرب أو الأمم الأخرى فلم يأخذوا عنه ما رواه عن بعضهم أذ وجود الصحابة كاف فكيف يأخذون عمن أخذ عن الصحابى والصحابى موجود فلم يكن لحديث عهد بالإسلام دخل فى الرواية فى تلك الحقيقة .

وما أخذه الصحابة عن علماء أهل الكتاب لم يرفعوه (أى لم يضيفوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) وإنما بينوا مصدره وذلك كاف فى الحفاظ على السنة .

ومن الذين تكلموا فى عهد الصحابة فى حال الرواة عبد الله بن عباس حبر هذه الأمه وفقيهها . وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك والسيدة عائشة رضى الله عنهم .

أما فى عصر كبار التابعين فوجد من له أوهام وأغلاط ووجد فيهم من الضعفاء من كانوا من دعاة المذاهب الخارجة والنحل الغالية ولم يوجد من يتعمد الكذب فتكلم العلماء فى الواحد بعد الواحد وممن تكلم فى هذا العصر جماعة كالشعبى وابن المسيب وابن سيرين أما فى عصر أواسط التابعين فى أوائل القرن الثانى الهجرى فوجد فيهم من الضعفاء من يقع منه رفع الموقوف ووقف المرفوع ورواية المرسل ومن يكثر خطؤه كأبى هارون عمارة بن حوين العبدى .

أما فى عصر صغار التابعين فى حدود منتصف القرن الثانى فلقد جد فيهم الفرق السياسية والعناصر الفلسفية وازداد التعصب فظهر الكذب ولزم من ذلك أن يتكلم العلماء فى الرجال وأن يتسع النظر فى الجرح والتعديل خصوصا وقد كثر بعد ذلك فى أتباع التابعين من يتعمد الكذب فى عصرهم

فنظر شعبة ومالك ومعمر وهشام الدستوائى ثم ابن المبارك وهشيم وابن عيينه ومن بعدهم يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى . وأول من جمع كلامه فى ذلك يحيى بن سعيد ثم تلاميذته مثل يحيى بن معين وعلى بن المدينى وأحمد بن حنبل ثم تلامذتهم كالبخارى ومسلم وأبى زرعة ثم تلامذتهم كالترمذى والنسائى إلى آخر عصر الرواية فى حدود الثلاثمائه .

وامتاز المتكلمون فى هذا الفن بميزة جعلت علم الجرح والتعديل محل أعجاب القاصى والدانى واصبح المؤرخ لأى فن والدارس لأى تاريخ يحاول أن يصل به إلى ماوصل إليه علم السنة المحمدية ولكن هيهات هيهات !! إن الأمر دين والله قد تكفل بحفظه ووعد الله لابد أن يتحقق . تلك الميزة هى أنهم كانوا ينقدون ويعدلون حسبة لله لا تأخذهم خشية أحد ولا تتملكهم عاطفة فليس أحد من أهل الحديث يحابى فى الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده سئل زيد بن أبى أنيسة عن أخيه فقال « لا تأخذوا عن أخى وسئل على ابن المدينى عن أبيه فقال : « سلوا عنه غيرى فاعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال هو الدين أنه ضعيف » وكان وكيع بن الجراح لسكون والده كان على بيت المال يقرن معه آخر إذا روى عنه وقال أبو داود صاحب السنن ابنى عبد الله كذاب وقال الذهبى فى ولده أبى هريره أنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه . (راجع فتح المغيث ٣/٣٢٢ للسخاوى ومقدمة صحيح مسلم والاعلان بالتوبيخ) .

وكانت المظاهر لا تغريهم وكل مايهمهم أن يخلصوا العمل لله ويصلوا إلى الحق الذى ترتاح عنده ضمائرهم لخدمة الشريعة ودفع مايشوبها وبيان الحق من الباطل .

قال يحيى بن معين « أنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم فى الجنة

منذ أكثر من مائتى سنة ، أى أناس صالحون ولكنهم ليسوا من أهل الحديث وكذا قال يوسف بن الحسين الرازى .

وقيل ليحيى بن سعيد القطان : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى ؟ قال : لان يكون هؤلاء خصمائى أحب إلى من أن يكون خصمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لم حدثت عنى حديثاً ترى أنه كذب ؟ « كفاية ص ٩٠ وورد عنه أيضاً « لم لم تذب الكذب عن حديثى » .

وهكذا صينت السنة وحفظت فلم يضع منها ماهو منها ولم يدخل فيها ماليس منها بل بقيت كما أوحاها الله سبحانه وتعالى إلى نبيه بيانا للقرآن وهداية للبشرية إلى الطريق القويم والصراط المستقيم أقوى من أن يؤثر فيها حقد أعداء الاسلام وأعلى من أن ينال منها قدم الزمن وتغاير الملوان وصدق الله العظيم إذ يقول ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض .

والله الهادى إلى الصراط المستقيم .

د / عبد المهدى بن عبد القادر
مدرس الحديث بكلية أصول الدين